من فلسفة المقاييس اللغوية: الاشتقاق المعنوي

الشيخ أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري
عضو المجمع

من فلسفة المقاييس اللغوية :

الاشتقاق المعنوي ١ - ٢ :

قال أبو عبدالرحمن: قلتُ كثيراً: إن أصل الاشتقاق المعنوي واحد، وليس أصولاً متعدِّدة؛ وذلك بأنْ يكون أحد معاني اللفظ هو الذي يدل عليه اللفظ دلالة مطابقة، وعنه تتفرع بقية المعاني.. وبالمطابقة والتفرع يكون المعنى حقيقةً، وأصلاً، وأوَّلَ، ووضعياً، وجامعاً.. وأمَّا المعاني - بالجمع - الجامعة: فإنها تعني أنَّ كلَّ معنى منها يجمع معانيَ كثيرة بالمجاز المباشر .. وكل تلك المعاني الجامعة يجمعها أصل واحد بالمجاز بالواسطة، وذلك هو (مقياس المَقاييس الواحد)، وتأتي نماذجُ ذلك إنْ شاء الله تعالى.. وما تفرع عنه يسمى اشتقاقاً معنوياً؛ وذلك الاشتقاق معنى مجازي .. وشرطُ واحديَّةِ الأصل أن يكون الواضعُ واحداً لا متعدداً، وأنْ تشمل دلالةُ الواضع العُرْفَ اللغوي العامَّ لدى الفصحاء: سواءٌ أكان نقل اللغة على المواضعة، أم على الارتجال، أم على استحياءٍ من لغاتٍ عربية بائدة، أم على اشتقاقٍ منها، أم على كل هذه الأنحاء..

والمعنى الأصلي الوضعي الأولي الحقيقي لا يكون بتنصيص من الفصحاءِ أهلِ السليقة، ولا يكون مُسلَّماً به من أيِّ عالم من علماء اللغة.. بل هو استنباطي يحصل باستقراء المعاني حتى يتميز المعنى الجامعُ المطابِقُ، ويحصل بالاستقراءِ يقينٌ أو رجحانٌ.. واليقين يحصل أكثر .

وإذا تعدد الواضع تعددت الأصول، وفي حكم تعدد الواضع تعدد اللهجات المتضادَّة، ووجود معنى في المادة طارئ بالتعريب، أو القلب، أو حكاية صوت.. وتطبيق كل ذلك بالاستقراء؛ والْمُرادُ بالوضع ما دلَّتْ مطابقةُ الْمَعْنى الكليِّ جميعَ المعاني الجزئية في الْمُفْردةِ؛ فيدُلَّ ذلك على أنَّ ذلك المعنى هو الأصْلُ، وليس المُرادُ بالواضعِ الدَّعاوَى الْمِيتافيزيقية كدعوى اتِّفاقِ جماعةٍ من العرب البائدةِ أوْ الباقية على وضعِ معانيَ لتلك الْمُفْرَدةِ، فيكون ذلك تواضعاً منهم.. إلى بقية تلك الدعاوى التي بحثها أهْلُ أصولِ اللغة، وأهلُ أصول الفقه بعناوين مثلِ : مَوْلِدُ [الرفع على الحكاية] اللغة، وهل اللغة توقيفية أو اصطلاحية.. إلخ؟.. بل بدايةُ اللغةِ (لُغَةِ كلِّ أُمَّةٍ) كانت في البدايةِ توقيفيةً بنصِّ القرآن الكريم على تعليمِ آدمَ عليه السلام الأسماء كلَّها، ثم كَثُرتْ أوْجُهُ نُمُوِّ اللغة.. وأوْجُهُ نُمُوِّ اللغة تلك كثيرة مِن نقليةٍ وعقليةٍ وطبيعيةٍ حِسِّيَّةٍ ستبرزُ إنْ شاء اللهُ تعالى واحدةً واحدةً في تناولي مُفْرَداتِ الكلمات، والصِّيغِ (الأوزان)، وحروفِ المعاني (الروابط)، ودلالات السياق (وعلم الدَّلالةِ علمٌ واسعٌ كثير الذيول)، ودلالاتُ تركيبِ الكلامِ نحواً وبلاغةً (والبلاغةُ هي النحو الثاني كما عند الإمام عبدالقاهر رحمه الله تعالى).. وأَهَمُّ أوْجُهِ نُمُوِّ اللغة النُّمُوُّ مِن دلالةِ التوقيفِ منذُ كانت اللغةُ لُغَةَ وصفٍ للعرب البائدة، وليستْ لغةَ عرقٍ؛ والعربُ كافَّةً هم ذُرِيَّةُ إسماعيلَ الذبيح بنِ إبراهيمَ

الخليل عليهما الصلاة والسلام، وعلى نبينا محمد، وعلى جميع الأنبياء والرسل، وعلى جميع مَن اتَّبعهم بإحسان إلى يوم الدين، واجعلنا معهم ومنهم برحمتك يا أرْحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين.. وتلك هي اللغة الفصحى، وذُرِّيَّةُ كلِّ العربِ عِرقاً هم بنو عدنانَ وقحطان؛ ذلك هو دلالةُ القرآن الكريم، والأحاديثِ الصحيحةِ، وهو مَذهبُ الفقهاء والمُحَدِّثين، وما سواه هو مذهب كذبةِ النسابين كابن الكلبي ووالده والْعَمِّي وغيرهم بكيدٍ مِن يهودَ.. ويأتي بيانُ كل ذلك، والبراهينُ القاطعةُ عليه إن شاء الله تعالى خلالَ هذه المقاييس في الكلام عن الشعوبيةِ الأُمَمِيَّة الكائدةِ الإسلامَ وأهْلَه، المُنْتَقِمَةَ لدولِ أُمَمِهم كسقوط كسرى وقيصرَ وكلِّ (خاقانَ)، ومن ذلك بعض شعوبيةِ بشارِ بن برد، وقد عُرِفوا في العصر العباسي بالزنادقة.. ثمَّ الحديثُ عن الشعوبيةِ العربية كشعوبية أبي نواس في مدائحهِ مواليه الْحَكَمِيِّين.. وعن الشعوبية العربية التي لا تُعْرفُ إلا بـ (العُنْصُرِيَّةِ العربيةِ) ضِدَّ الأمم.. وكلَّ مَن أسلم مِن الأمم فهو عندهم (مَوْلَى) سواءٌ أَمَرَّ عليه رقٌّ، أمْ لَمْ يَمُرَّ؛ وهذه هي العصبية التي وصفها الشرعُ المُطهَّرُ بأنها مُنتنةٌ، وبأنها من دعاوَى الجاهِلية، وقد يكون آباءُ الْمُتعصِّب قُطَّاعَ طُرقٍ، أو جبناءَ، أوْ ذوي أُبْنةٍ؛ وكلَّهم بَوَّالٌ على عَقِبيه؛ فقبَّح الله ذلك الفخرَ، وذلك الانتماءَ الهزيل.. ثم الحديثُ عن العصبيَّةِ الكريمةِ للعرب بالشرط الإسلامي؛ لكونِ الرُّقْعَةِ العربية المحدودةِ، والرقعةِ الإسلامية الواسعة مَمْهورةً بجهادهم المُقَدَّسِ في القرونِ الثلاثةِ الأولى الممدوحةِ شرعاً، ولكون العرب هم المَرْجعَ في فهمِ الخطابِ الشرعي، وتوعَّدهم ربُّهم سبحانه وتعالى إنْ تولَّوا أنْ يستبدلَ قوماً غيرهَم ثم لا يكونوا أمثالَهم؛ فكان صلاح الدين الأيُّوبي،

وبيبرس، وكافور، ومحمد الفاتح .. إلخ رحمهم الله جميعاً .. ثم يأتي الحديثُ عن عصبيَّةِ أبناءِ الأمم الأخرى ضِدَّ الإسلامِ وأهلِهِ سواءٌ أكانوا موالي مَرَّ عليهم رِقٌّ، أم كانوا موالي للإسلام وأهله وإن لَمْ يمُرَّ عليهم رِقٌّ أمثالُ البخاريِّ ومسلم وسفيان بن عيينه الهلالي ولاءً رضي الله عنهم أجمعين .. ومنهم منجنيقُ أهل الإسلام الإمامُ أبو مُحمَّدٍ عليُّ بنُ أحمد ابن حزم قدَّسَ الله روحه ونَوَّرَ ضريحَه القائلُ:

سما بيَ ساسانٌ ودارا وبَعْدهُمْ

قُرَيْشُ العُلا أَعْياصُها والعنابِسُ

فلا حَرْبٌ أخَّرَتْ مراتبَ سُؤْدَدِيْ

ولا قَعَدَتْ بيْ عن ذُرَى المجدِ فارسُ

فَفَخُرَ ولاءً عربياً بقريشٍ رَحِمِ العروبةِ خُلفاءَ وفقهاءَ وملوكَ رحمة، وفَخُرَ عِرقاً بملوك قومه - وقد بيَّن الإمام ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه (الصِّراطُ المُسْتقيم) - الرفعُ على الحكاية - : أن باديةَ الفُرْسِ في المَرتبة الثانية بعد العرب مِن جهة نجابةِ العِرْق ومكارمِ الأخلاق التي هذَّبها الإسلام، وأنَّ ملوكهم أهلُ عدلٍ في الرعيةِ؛ فأنْعِمْ بالمَفْخرين.

قال أبو عبدالرحمن: والاشتقاق المعنوي هو اللبُّ، وهو الذي يحتاج إليه العامَّة والخاصة؛ لِيَتَيَسَّرَ حفظ متن اللغة تِلْقائياً ؛ لأن بيان اشتقاق المعنى يحتاج إلى تفسير وتعليل، والتعليل يُرسِّخ المادة في الذهن، ويعينه على الإلمام بتسلسل المعاني.. وأنت تحفظ ما تعقله أكثر مما

تحفظ ما لا تعقله .. وهذا الاشتقاق أجلَّ مطلب تُدوَّن عليه جميع مفردات اللغة ومعانيها في معجم جامع، وهذا الاشتقاق أيضاً أصَّلَه الإمامُ ابنُ فارس رحمه الله تعالى في كتابه (مقاييس اللغة)؛ وكان ذلك التأصيل تجربة هو رائدها، ولم تصقلها العقول بعده ؛ فعِظَمُ ما لديه لا يحتاج إلى استدراك وتتميم .. وَوُجِد هذا الفنُّ لفتاتٍ مفرَّقةً في بعض المعاجم قبل ابن فارس وبعده، وأكثر مَن يحفل بذلك الخليل وابن دريد والراغب والزمخشري .. ويلي هذا الاشتقاقَ ذلك الاشتقاقُ المعنوي لموادَّ تشترك في الحروف، وتختلف بالتقديم والتأخير .. وهو يلي في الأهمية الاشتقاق المعنوي للمادة الواحدة .. وقد وردت لمساتٌ من ذلك في الكلام عن الجذر الثنائي، وما يُحْدثه من معنى جامع كالنفاذ لنفت ونفث ونفد ونفذ ونفر ونفز ونفح ونفج ونفخ ونفس ونفش .. إلخ، ووردت لمساتٌ من ذلك في قلب المادة كصنيع ابن جني في قَوَلَ وولق ولوق ووقل ولقو .. وأمَّا ما يسمونه اشتقاقاً لفظياً فذلك تجوُّز؛ وإنما هو تحويلٌ إلى صيغٍ موجودة عند العرب حاضرةٍ بأوزانها ومعانيها .

قال أبو عبدالرحمن: وبوسعي اليوم استقراءُ بعضِ المواد من مقاييس اللغة لابن فارس ؛ فقد ذكر رحمه الله تعالى مادةَ الظاء واللام والميم التي فيها الظَّلْمُ والظلام، وجعلها أصلين صحيحين: أحدهما خلاف الضياء والنور، والآخر خلاف العدل الذي وصفه بوضع الشيء في غير موضعه تعدياً.

قال أبو عبدالرحمن: هذان المعنيان في استعمال العرب قاطبة ؛ فلا يمكن تعدُّدُ الأصول، بل الأصل واحد، وهو المضادُّ الضِّياءَ .. والظلمة

في مجرى العادة غير محمودة للبشر ؛ فاشتقوا منها خلاف العدل ؛ لأن خلاف العدل ظلام في العقل لم يصدر عن فكر نيِّر، وظلام في القلب لم يصدر عن نورِ إيمان، وظلام في السلوك تتخبط به حياةُ الناس في العمى، وجزاؤه دنياً وآخرة ظُلمات في التدبير تمنع من تدبير نيِّر، وظلمات في النار ؛ ولهذا قيل: الظلم ظلمات .. والقاعدة أن اللفظ الأقلَّ مبنى هو الأقدمُ في استعمال المادة ؛ ولهذا أذهب إلى أنَّ الأصل: ظَلَمَ ظَلَماً - بتحريكِ الأحرفِ -؛ وذلك هو الظلام، وظلم ظُلْماً بالضم فالسكون فالفتحِ مع التنوين؛ وذلك يكونُ ضدَّ العدلِ .. وأما قول ابن فارس رحمه الله عن (ظُلْمَةٌ) : «لا يشتق منه فِعْلٌ» : فيريد أنَّ فِعْلَهُ خلافُ الضِّياءِ الذي فِعْلُهُ رباعِيٌّ.. أي: (أضاء) رباعي لا ثلاثي .

قال أبو عبدالرحمن: لا نقول: لا يُشتق منه (فَعَلَ)؛ بل نقولُ : فِعْلُه، ثلاثي أُميت؛ فجعلوا الرباعي أظلم بخلاف الضياءِ، وخصصوا الثلاثي (ظَلَمَ) بخلافِ العدل؛ إذن الظَّلْمة والظَّلَمَ بالتحريك بمعنى خلاف الضياء من الفعل الثلاثي (ظَلَم) الذي خُصِّص فيما بعد لخلاف العدل ؛ فصارت الظلمة اسماً للظلام كما نص على ذلك ابن فارس .. ويلحق بها الظَّلَمُ المحركة .. قال ابن فارس: «لقيته أول ذي ظُلْمة .. قال الخليل: هو أول شيئ سد بصرك في الرُّؤْية.. لا يُشتق منه فَعَلَ [قال أبو عبدالرحمن : ظُلْمة، وظَلَمٌ ذات فعل مُمَات هو الماضي ظَلَمَ بالنسبة للظلام اُسْتُغْني عنه بالرباعي أظلم؛ فهو بمعنى (ظَلَمَ ظَلَماً)؛ و(الظَّلَمُ) هو المصدر؛ فَلَمَّا أُمِيْتَ المصدرُ (ظَلَمٌ) صار بِمَعْنى (أَظْلَمَ) الرُّباعيِّ وبقي الثلاثي ظَلَمَ لخلاف العدل] .. ومن هذا قولهم: لقيته أدنى ظَلَمٍ للقريب» [مقاييس اللغة ٣/٤٦٢] .

قال أبو عبدالرحمن: ويقال أيضاً لأول ما يسدُّ بصرك: لقيته أدنى ذي ظَلَمٍ.. وأول الشيء نحوك هو القريب إليك ؛ فالقريب والأول ههنا في الاستعمال واحد.. والمهمُّ أن فِعْلَ ظَلَم اقْتُصِر به على خلاف العدل، وجُعل لخلاف الضياء الفعلِ الرباعي (أظْلم)، وبقي الظَّلَمُ المُحَرَّكُ من فِعْلِ ظلم مرادفاً للظلام من أظلم .. وههنا وقفتان مع كلام الإمام ابن فارس رحمه الله تعالى حول هذه المادة:

الوقفة الأولى: قولُ ابن فارس: «ويقولونه بألفاظ أُخَرَ مركَّبةٌ من الظاء واللام والميم؛ وأصْلُ ذلك الظَّلمة .. كأنهم يجعلون الشخص ظُلْمة في التشبيه، وذلك كتسميتهم الشخص سواداً ؛ فعلى هذا يحمل الباب، وهو من غريب ما يحمل عليه كلامهم» [مقاييس اللغة ٤٦٨/٣] .

قال أبو عبدالرحمن: أمَّا (لقيته أول ذي ظُلمة)، أو (أدنى ذي ظَلَمٍ): فذلك حقيقة لا مجاز فيه ؛ لأنَّ المرادَ الإظلامُ على البصر الذي أحدثه الإنسان، وليس المراد الإنسان نَفْسه .. وأما قولُ ابن فارس: «كتسميتهم الشخص سواداً» ؛ فذلك وصْفٌ لا تسمية؛ فلا مجاز ؛ لأن الشخص من بُعْدٍ يكون في رؤية البصر هذه سواداً.

والوقفة الأخرى: أنَّ ابن فارس عرَّف الظَّلْم - بمعنى ضد العدل - بأنه وَضْع الشيء في غيرِ موضعه تعدّياً؛ وهذا رأي قال به كثير .. إلا أنهم لم يحتاطوا احتياطَ ابن فارس بذكر التعدِّي، وبعضهم عرَّف الظَّلْمَ بأنْ تتصرف في مُلْكِ غيرك بلا إذنه؛ وهذا نوع من الظلم؛ فإلى لقاء عاجلٍ إن شاء الله تعالى الأسبوعَ القادمَ في مثلِ هذا اليوم؛ والله المُسْتعانُ، وعليه الاتكال.

من فلسفةِ المقاييسِ اللُّغَوِيةِ :

الاشتقاقُ المعنويُّ ٢ - ٢ :

قال أبو عبدالرحمن : أسلفتُ في الأسبوع الماضي : أنَّ الْـمَالِك أيضاً يتصرَّف في ملكه بالعدل وإلا كان ظالماً؛ فلا يؤذي مثلاً جاره؛ بأنْ يَتَّخِذَ حِرْفَتَهُ الْـمُزْعِجةَ قريباً من داره، أو يَرْفَعَ أدوار بيتِه؛ فيكشف محارمَه.. والتعدِّي كافٍ عن ذِكْرِ وضعِ الشيء في غير موضعه .. قال الإمامُ ابن فارس رحمه الله تعالى : «الأصلُ وضعُ الشَّيء في غير موضعه.. ألا تراهم يقولون : (مَنْ أَشْبَهَ أباه فما ظَلَم) كأنهم يجعلون الشخصَ (ظُلْمَةً) في التَّشبِيْهِ؛ وذلك كتسْمِيتِهم الشَّخْصَ سواداً؛ فعلى هذا يُحْمَلُ الباب؛ وهو مِن غريب ما يُحمل عليه كلامهم» .. [مقاييس اللغة ٤٦٨/٣/ دار الجيل ببيروت].

قال أبو عبدالرحمن : كلمة (ظَلَمَ) في الْـمَثَلِ «مَن أشْبَهَ أباه فما ظَلَمَ»: ليستْ ظَلَمَ فيه بمعنى أنه فعل ضِدَّ العدل؛ وإنما هو من الظلام ضِدَّ الضياء .. أيْ أنَّ حَمْلَه شَبَهَ أبيه إضاءَةٌ على عفاف الأُمِّ، وأنَّ الابْنَ اِبْنُ أبيه بلا أدنى شُبْهَةٍ؛ وقد مَرَّ أنَّ الفِعْلَ (ظَلَمَ) فِعْلٌ يأتي منه أيضاً الاسمُ (ظَلَماً) بمعنى أضاء، وليس الفِعْلُ ههنا بمعنى ضِدِّ العدل؛ لأنَّ أيَّ معنى يُدَّعى لا يُعْقَلُ إلا بمعنى : كَوْنُهُ جاءَ شِبْهَ أبيه: ليس ظُلْماً .. والمعنى حينئذٍ تَعَجَّلَ حَمْلَهُ شَبَهَ أبيه قَبْلَ أن تَتَّضِحَ كُلَّ ملامحِه : جاء قَبْلَ أوانه؛ فكأنه ظَلَمَ الشَّبَهَ؛ فجاء به قبل أوانه كوصفِهم الأرض بأنها مَظْلُومةٌ؛ لأنها حُفِرَتْ ولم تكن محفورةً قَبْلَ ذلك .. قال الشاعر :

فأصبح في غبراءَ بعد إشاحةٍ على الْعيْشِ مَرْدودٍ عليها ظليمُها

إلا أنَّ العِبْرةَ بالأرجح، وأما المعنى الآخَرُ الذي هو ضِدُّ العَدْل : فلا نُكْتَةَ وراءه؛ فأصبح معنى الضياء هو الْمُتَعِيِّنُ ..، وأصْوبُ طريقِ لِمَعْرِفَةِ الظلم أنْ نبحث صُوَرَ الأشياءِ التي يَعُدُّها الناس تظالماً؛ فنجد الظلم الذي هو ضدُّ العْدلِ : لا يعدو ثلاثة أمور: إما إيصالُ أذى في النفس أو المال أو العقل أو الدين أو العِرضِ، وإما مَنْعُ حقٍّ واجب كالعوض عن جناية، أو العوضِ عن مشقَّةِ أجير .. وإما جحدُ ذي حقٍّ حقَّه بالشهادة لِمَدِينه؛ ولهذا كان الشرك ظلماً عظيماً ؛ لأنه جَحْدٌ لكمال الله ووحدانيته .. بَيْدَ أن الله سبحانه وتعالى عزيز لا يصل إليه ظُلْم أحد ؛ فهو الحق المبين وإن جحده الجاحدون ؛ فكان متعلِّقُ الظلم عائداً إلى النفس الجاحدة؛ إذْ الكافر الْمُشْرِكُ ظلم نفسه بِمَغَبَّة ما يناله من جزاءٍ .

وههنا وقفة عند قولِ العرب: (مَن أشبه أباه فما ظلم)؛ فإنها مجازٌ أدبي لا لغوي - وهو مجاز عقلي -، والمعنى أنَّ الإنسان غيرُ مختار في تصوير خِلْقَته، فَنُزِّل منزلةَ المختار: بأنه لم يظلم أباه بهذه المشابهة؛ لأنه ابنه حقيقة، ومع حقيقة البُنُوَّة فالشَّبَهِيَّةُ فطرة.. هذا هو تحليل التعبير المجازي إلى أصله الحقيقي، وبيان وجهه من اللغة والبلاغة.. وأما مسوِّغ المجاز ونُكْتَتُه فهو نْفيُ الريبة عن الأم، وإثباتُ عراقة الابن في المجد إذا اقترن بشبَهِيةِ الخِلْقة شبهيِّةُ الأخلاق الفاضلة .. والفرق بين المجاز الأدبي والمجاز اللغوي: أنَ ظَلَمَ باقية على معناها اللغوي الذي هو ضدُّ العدل؛ ولكنَّ الظلمَ اللغوي أُسند إلى غير مختار للفعل؛ فكان ذلك مجازاً أدبياً.. وأقول: ليس مجازاً لغوياً بالنسبة لإرادة معنى الظلم ضد العدل .. وإلا فإن الظلم الذي هو ضد العدل مجاز في المادة ؛ لأنه مأخوذ من

الظلام.. ولو صح أن قولهم: (من أشبه أباه فما ظلم) : مجاز لغوي: لكان مجازاً بالواسطة، لا مجازاً مباشراً .. إذن معنى الضياء هو الأَبْلَغُ الـمُتَعَيِّن ولا سيما أنَّ الظلامَ يعني الشِّركَ والفسق والجهلَ، وأنَّ النورَ يعني الإيمانَ والتقوى والعلم النافع .. ولقد انطلق الراغب الأصفهاني من مقاييس ابن فارس رحمهما الله تعالى، ولكنه أطال التخريج عليها؛ فقال: «ظلم: الظَّلْمَةُ: عَدَمُ النُّورِ، وَجَمْعُهَا: ظُلُمَاتٌ.. قال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ﴾ [النور: ٤٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ﴾ [النمل: ٦٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، ويُعَبَّرُ بها عَن الجَهْلِ وَالشِّرْكِ والفِسْقِ، كما يُعَبَّرُ بالنُّورِ عَنْ أَضْدادِها .. قال الله تعالى: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ وهو كقولِهِ تعالى﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ [الرعد: ١٩].. وأما قولُهُ في سُورَةِ الأَنْعَام ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٩] : فقولُهُ: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ هَهُنَا مَوْضُوعٌ مَوْضِعَ العَمَى في قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وقولُهُ﴿فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزُّمَر: ٦]، أي: البَطْن والرَّحِمِ وَالـمَشِيمَةِ، وأَظْلَمَ فُلانٌ: حَصَلَ في ظُلمةٍ .. قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: ٣٧].. والظَّلْمُ عِنْدَ أَهْلِ اللُّغَةِ وكَثيرٍ مِنَ العُلَماءِ: وَضْعُ الشَّيء في غَيْرِ مَوْضِعِهِ الـمُخْتَصِّ به؛ إمّا بِنُقْصَانٍ أو بِزِيادَةٍ؛ وإمَّا بعُدُول عَنْ وَقْتِهِ أو مَكَانِهِ؛ ومِنْ هذا يُقالُ: ظَلَمْتُ السِّقَاءَ: إذا تَنَاولْتَهُ في غَيْرِ وَقْتِهِ، وَيُسَمَّى ذلك اللَّبَنَ الظَّلِيمَ .. وظَلَمْتُ الأرضَ: حَفَرْتُها ولم

تَكُنْ مَوْضِعاً لِلْحَفْرِ، وَتِلْكَ الأرضُ يُقالُ لَهَا: المَظْلُومَةُ، وَالتُّرَابُ الَّذي يَخْرُجُ منها: ظَلِيمٌ.. والظَّلْمُ يُقالُ في مُجَاوَزَةِ الحَقِّ الذي يَجْرِي مَجْرَى نُقْطَةِ الدَّائِرَةِ، وَيُقالُ فيما يَكْثُرُ وفيما يقِلُّ من التَّجَاوُزِ، ولهذا يُسْتَعْمَلُ في الذَّنْبِ الكَبِيرِ، وفي الذَّنْبِ الصَّغِيرِ؛ ولذلك أيضاً قِيلَ لآدَمَ في تَعَدِّيهِ ظَالِمٌ، وأعْتَرَفَ آدمُ عليه السلامُ في استغفاره ربَّه : أنه ظَلَمَ نَفْسَهُ .. وإبليسُ لعنه اللهُ أظْلَمُ الظَّلَمةِ، وإنْ كانَ بَيْنَ الظَّلْمَيْنِ بَوْنٌ بَعِيدٌ.. قال بَعْضُ الحُكَماءِ : الظَّلْمُ ثَلاثَةٌ:

الأوَّلُ: ظُلْمٌ بَيْنَ الإنْسَانِ وبَيْنَ اللهِ تعالى، وَأَعْظَمُهُ الكُفْرُ والشِّرْكُ والنِّفَاقُ؛ ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، وَإِيَّاهُ قَصَدَ بقولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود: ١٨]، وقال سبحانه وتعالى : ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [الإنسان: ٣١] في آي كَثِيرَةٍ، وقال سبحانه وتعالى:﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزُّمَر: ٣٢]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٢١]

والثاني: ظُلْمٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ الناسِ، وَإِيَّاهُ قَصَدَ بقولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ [الشورى: ٤٠] إلى قوله : ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى: ٤٠] ، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الشورى: ٤٢]، وبقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

والثالث : ظُلْمٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ نَفْسِهِ، وَإِيَّاهُ قَصَدَ بقولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ [القصص: ١٦]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤]، وبقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٣٥] : أي مِنَ

الظَّالِمِين أَنْفُسَهُمْ، وبقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣١].. وكُلُّ هذه الثَّلاثَةِ في الحَقِيقَةِ ظُلْمٌ لِلنَّفْسِ؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ في أَوَّلِ مَا يَهُمُّ بالظُّلْمِ فقد ظَلَمَ نَفْسَهُ، فإذن الظالِمُ أَبَداً مُبْتَدِئٌ في الظُّلْمِ؛ ولهذا قال سبحانه وتعالى في غَيْرِ مَوْضِعٍ: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: ٥٧]، وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]؛ فقد قيلَ: هو الشِّرْكُ؛ بِدَلالَةِ أَنه لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ شَقَّ ذلك على أصحاب النبيِّ عليه السلامُ؛ فقال لهم صلى الله عليه وسلم: (ألم تَرَوْا إلى قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣] .. وقولُه ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: لم تَنْقُصْ، وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الزُّمَر: ٤٧]؛ فإنهُ يَتَنَاولُ الأَنْوَاعَ الثَّلاثَةَ من الظُّلْمِ؛ فَمَا أَحَدٌ كانَ مِنْهُ ظُلْمٌ مّا في الدُّنْيَا إِلَّا ولو حَصَلَ له ما في الأرضِ وَمِثْلُهُ مَعَهُ لَكَانَ يَفْتَدِي به .. وقولُه سبحانه وتعالى: ﴿هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾ [النجم: ٥٢]: يأتي تنبيهاً [على] أنَّ الظُّلْمَ لا يُغْنِي ولا يُجْدِي ولا يُخَلِّصُ بلْ يُرْدِي بِدَلَالَةِ قَوْمِ نُوحٍ .. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ [غافر: ٣١]، وفي مَوْضِعٍ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق: ٢٩]، وتخْصِيصُ أَحَدِهِمَا بالإِرَادَةِ مع لَفْظِ الْعباد، والآخرُ بِلَفْظِ الظَّلَّامِ للْعَبِيد: يَخْتَصُّ بِمَا بعْدَ هذا الكِتاب.. والظَّلِيمُ: ذَكَرُ النَّعَامِ، .. وقيلَ: إِنَّمَا سُمِّيَ بذلك لاعْتِقَادِهِمْ أنهُ مَظْلُومٌ؛ لِلْمَعْنى الذي أشارَ إليه الشاعرُ:

فَصِرْتُ كَالْهَيْقِ عَدا يَبْتَغِي قرناً فلم يَرْجِعْ بِأُذْنَيْنِ

والظَّلْمُ: ماءُ الأسنان .. قال الخليلُ: لَقِيتُهُ أوَّل ذي ظَلَمٍ، أو ذي ظَلَمَةٍ؛ أي أوَّلَ شيء سَدَّ بَصَرَكَ .. قال : ولا يُشْتَقُّ منه فِعْلٌ، ولَقِيتُهُ أدْنَى ظَلَمٍ كذلك.

قال أبو عبدالرحمن: (تحقيقُ بَعْضِ النصوص) مِن روافد كتابي (مقاييس المقاييس)، وهما من روافد كتابَيَّ (من أحكامِ الدِّيانة) و(تفسير التفاسير)، وكُلَّهَا روافِدُ لكتابَيَّ الكبيرين (العَقْلُ الجماليَّ) و(لَنْ تُلْحِدَ).. وهذا السياق من كلام الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى في كتابه عَنْ مُفْرداتِ القرآن بِنَصِّه وَفَصِّه سوى إضافاتٍ قليلةٍ لا تُغَيِّر مِن الْمَوْضوعِ شيئاً كَتَسْبيحي الرَّبَّ جَلَّ وعلا قَبْلَ إيراد الآية الكريمة .. وفي الأُسبوعِ القادِم إن شاء الله تعالى أَقِفُ وقفاتٍ ضرورية عند هذا السياقِ؛ فإلى لقاءٍ في مثلِ هذا اليوم من الأسبوع القادم، والله المستعانُ .

من فلسفةِ المقاييسِ اللُّغَوِيةِ :

الاشْتِقاقُ الْـمَعْنَوِيُّ ٣-٣ :

قال أبو عبدالرحمن : أَقِفُ الآنَ وقفاتٍ ضرورية مع ما سُقْتُه من كلام الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى في كتابه (مفردات القرآن) في الحلقة السابقة رقم (٢) :

الوقفةُ الأولى : عن معاني الظَّلماتِ .. قال الإمام ابن جرير رحمه الله تعالى : ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].. يعني بذلك: يُخْرِجُهم مِن ظُلُماتِ الكفرِ إلى نورِ الإيمانِ .. وإنما عنَى بالظُّلُماتِ في هذا الموضعِ، الكفرَ؛ وإنما جعَل الظُّلُماتِ للكفرِ مَثَلاً؛ لأن الظُّلُماتِ حاجبةٌ للأبصارِ عن إدراكِ الأشياءِ وإثباتِها، وكذلك الكفرُ حاجبٌ إبصارَ القلوبِ عن إدراكِ حقائقِ الإيمانِ، والعلمِ بصحتِه وصحةِ أسبابِه؛ فأخبَر تعالى ذكرُه عبادَه أنه وَلِيُّ المؤمنين، ومُبَصِّرُهم حقيقةَ الإيمانِ وسُبُلَه وشرائعَه وحُجَجَه، وهادِيهم؛ فمُوَفِّقُهم لأَدِلَّتِه المُزِيلةِ عنهم الشكوكَ؛ بكَشْفِه عنهم دواعِيَ الكفرِ، وظُلَمَ سواتِره من إبصارِ القلوبِ .. ثم أخبَر تعالى ذكرُه عن أهلِ الكفرِ به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾يَعني الجاحِدين وَحْدانيَّتَه .. ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ﴾.. يعني نُصَراءهم وظُهَراءهم الذين يَتَوَلَّوْنهم .. ﴿الطَّاغُوتُ﴾ .. يعني الأندادَ والأوثانَ الذين يَعْبُدُونهم من دونِ الله .. ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾.. يَعني بالنور الإيمانَ، على نحو ما بينا ..﴿إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ .. ويعني بالظُّلُماتِ ظُلُماتِ الكفرِ وشكوكَه الحائلةَ دونَ إبصارَ القلوبِ، ورُؤيةَ ضياءِ الإيمانِ، وحقائقِ

أَدِلَّتِه وسُبُلِه.. وبنحوِ الذي قلْنا في ذلك قال أهلُ التأويلِ .. ذِكْرُ مَن قال ذلك : مَنْ فَسَّرَ النور والظلمات بالهدى والضلالة، أو الكفر والإيمان» .. وبإسنادِ ابن جرير رحمه الله تعالى إلى ابن حميد - وهو مُشْتهر بالكذب - قال: «إنَّ المرادَ الذين آمنوا بعيسى بعد بعث الله عبدَه ورسوله محمدٍ بن عبدالله صلى الله عليهما، وعلى جميع إخوانهما من النَّبيِّيْنَ والمرسلين، وعلى مَنْ تبعهما بإحسان إلى يوم الدين أفْضلُ الصلاة وأتمَّ التسليم، واجعلنا معهم ومنهم برحمتك يا أرحم الراحمين .. وهكذا رَوَى عن الحجاج بن المنهال بسنده إلى عَبْدَةَ بنِ أبي لبابة .. وأسند إلى الضحاك : أنَّ النورَ الهدى، والظلماتِ الضلالةُ.. وأسند إلى الربيع: أنَّ الظلماتِ الكفرُ، وأنَّ النورَ الإيمانُ .. وأسند بالشَّكِّ إلى مجاهدٍ أو مِقْسَمٍ : أنَّ المرادَ بالإيمانِ الإيمانُ بعيسى بعد بِعْثَةِ محمد صلى الله عليه وسلم، وأن الظَّلماتِ الكفرُ به قبل ذلك» .. ثم قال ابن جرير: «وهذا القول الذي ذكَرْناه عن مجاهدٍ وعَبْدةَ بن أبي لُبابةَ : يَدُلُّ على أنَّ الآيةَ معناها الخصوصُ، وأنها -إذ كان الأمرُ كما وصَفْنا- نزلَتْ فيمَن كفَر مِن النَّصارَى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وفيمَن آمَن بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم من عَبَدةِ الأوثانِ الذين لم يكونوا مُقِرِّين بنبوَّةِ عيسى عليه السلامُ، و[في] سائرِ المللِ التي كان أهلُها يُكَذِّبُوْنَ بعيسى.. فإن قال قائلٌ: أَوَ كانت النَّصارَى على حقٍّ قبلَ أن يُبْعَثَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم فيُكذِّبوا به ؟.. قيل: مَن كان منهم على مِلَّةِ عيسى ابنِ مريمَ صلَواتُ اللهِ عليه: فكان على حقٍّ .. وإياهم عنَى اللهُ تعالى ذكرُه بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦].. فإن قال قائلٌ: فهل

يَحتمِلُ أنْ يكون قولُه سبحانه وتعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ : أن يكونَ م مَعْنِيًّا به غير الذين ذكَر مجاهدٌ وعبْدةُ: أنهم عُنُوا به من المؤمنين بعيسى، أو غيرَ أهل الرِّدَّةِ عن الإسلام؟ .. قيل: نعم يَحتمِلُ أنْ يكونَ معنى ذلك و[يكون] والذين كفَروا أولياؤُهم الطاغوتُ : يَحُولُونَ بينَهم وبين الإيمانِ، ويُضِلُّونهم فيَكْفُرون؛ فيكونُ تَضْلِيلُهم إيَّاهم حتى يكفُروا إخراجاً منهم لهم مِن الإيمانِ؛ بمعنى صدِّهم إيَّاهم عنه، وحِرْمانِهم إياهم خيْرَه وإن لم يكونوا فيه قطَّ كقول الرجل: (أَخْرَجني والدي من ميراثِه)، إذا ملَّك ذلك في حياته غيرَه؛ فحَرَمه منه حظَّه، ولم يَمْلِكْ ذلك القائلُ هذا الميراثَ قطَّ فيَخْرُجَ منه، ولكنه لَمَّا حُرِمَه، وحِيلَ بينَه وبيَن ما كان يكونُ له لو لم يَحْرِمْه: قيل : أخرَجَه منه .. وكقولِ القائلِ: أَخْرَجَني فلانٌ مِن كَتِيبتِه) .. يَعني لم يَجْعَلْني مِن أهلِها، ولم يكنْ فيها قَطَّ قبل ذلك[1]؛ فكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] : مُحْتَمِلٌ أنْ يكون إخراجهم إيَّاهم من الإيمانِ إلى الكفرِ على هذا المعنى، وإنْ كان الذي قاله مجاهدٌ وعَبْدةُ أشبهَ بتأويلِ الآية.. فإن قال قائلٌ: وكيف قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ فجمَع خبرَ الطاغوتِ [يعني أنه أورد الخبر عن الطاغوت بصيغةِ الجمعِ مع أنَّ الطاغوت مُفْرد] بقولِه سبحانه وتعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُم﴾ [البقرة: ٢٥٧]، والطاغوتُ واحدٌ ؟.. قيل: إنَّ

(١) قال أبو عبدالرحمن : اِقْتَبَسَ بعضَ ذلك أبو الحسن الواحديُّ [- ٤٦٨هـ] رحمه الله تعالى في تفسيره (التفسيرُ البسيطُ) ٤/ ٣٧٠/ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عام ١٤٣٠هـ وَلَمْ يَعْزُهْ إلى ابن جرير.

الطاغوتَ اسمٌ لِجمعٍ وواحدٍ، وقد يُجْمَعُ على (طواغيت)؛ وإذا جُعِل واحدُه وجَمْعُه بلفظٍ واحدٍ، كان نظير قولهم: (رجلٌ عَدْلٌ، وقومٌ عَدْلٌ، ورجلٌ فِطْرٌ وقومٌ فِطْرٌ، وما أَشبهَ ذلك من الأسماءِ التي يأتي مُوَحَّداً في اللفظِ واحدُها وجمعُها، وكما قال العباسُ بنُ مِرْداسٍ:

فَقُلْنَا أَسْلِمُوا إِنَّا أَخُوكُمْ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنَ الإِحنِ الصدُورُ[(١)].

قال أبو عبدالرحمن : وللإمام ابنِ كثير رحمه الله تعالى كلام نفيس فَسَّرَ به معاني النور والظلمات بما يليق بما ترجَّح لديه مِن أنَّه مرادُ الله في الآية الكريمة؛ فقال : «يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سُبُلَ السلام؛ فيُخرج عبادَه المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والرَّيبِ إلى نور الحق الواضح الجليِّ المبين السهل الْمُنير، وأنَّ الكافرين إنما وليهم الشيطانُ يُزيِّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم [السياقُ مُفْرَدٌ عن (الشيطان)؛ وأَوْرَدَ الخبرَ عنه بصيغة الجمع (يُخْرِجونهم) بالنظر إلى سياق الآية الكريمة في خبره عن الطاغوت بصيغةِ الجمعِ، والشيطانُ أَحَدُ الطواغيت، ولا ريب أنَّ أُسْلوبَ الالتفاتِ من الوسائل البلاغية؛ فحين يكون السياق عن أحدِ الطواغيت يكون الخبر بصيغة الْمُفْرَدِ؛ وعندما يراد التعبيرُ عن كلِّ طاغوت يكون الخطابُ بصيغة الجمع]، ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك .. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٧]؛ ولهذا وحَّد تعالى لفظ النور،

(١) تفسير الطبري ٤/٥٦٤ - ٥٦٦/ ط دارِ عالم الكتب بالرياض/ طبعتهم الأولى عام ١٤٢٤هـ.

وجمَع الظلمات؛ لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ [الأنعام: ١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨].. إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعارٌ بتفرُّد الحقِّ وانتشارِ الباطل وتفرُّقه وتشعبه.. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي: حدثنا علي بن ميسرة: حدثنا عبدالعزيز بن أبي عثمان: عن موسى بن عبيدة: عن أيوب بن خالد .. قال: يُبْعث أهل الأهواء، أو قال: تُبعث أهل الفتن؛ فمن كان هواه الإيمان كانت فتنته بيضاء مضيئة، ومن كان هواه الكفر كانت فتنتُه سوداء مظلمة، ثم قرأ هذه الآية: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧] »[(١)].

قال أبو عبدالرحمن: إذنْ لا بد من العودةِ إلى المعنى الأصليِّ والمعاني المجازية ابتداءً مِن تأصيل ابن فارسٍ تلخيصاً لما سبق لي إيرادُه؛ فمادَّةُ الظاء المعجمة، واللام، والميم: أصلان جامعان عنده: أوَّلُهما خِلافُ الضياء، وثانيهما وضْعُ الشيء في غير مَحَلِّه تَعَدّياً .. ولقد أَسْلَفْتُ أنَّ الأقلَّ حروفاً هو أصْلُ الاشتقاق؛ لأنَّ زيادةَ المَبْنَى لزيادة المعنى؛ فحينئذٍ تكون (ظَلَمَ) هي المعنى الحقيقيُّ؛ وتكون (أظلم) معنى

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٣ - ٢٥٤/ ط دارِ ابنِ الجوزي بالرياض/ طبعتهم الأولى عام ١٤٣١هـ.

جامعاً مُشتقّاً بكلِّ معانيه من الفعل الثلاثي (ظَلَمَ)؛ ووجْهُ ذلك: أن الظَّلْم بِمَعْناه الأصلي الوضعي هو : (الْعُـدْوان بِغَـيرِ حَـقٍّ)، ثم لا بُـدَّ أنْ تَـذْكر نوعيَّةَ كل عدوان : أهو عدوان بالسبِّ، أو بالضـرب، أو بالقتـل.. إلخ .. ثم تذكر الجامعَ لهذه الأنواع : بأنه يُؤْلم النفس، أو يُؤذيها، ثُمَّ تُسْنِدُ ذلك إلى نفسٍ أو حِسٍّ يتألَّم؛ لتحصـر معـنى وصـفةَ مـا يُطْلـق عليـه المعـنى الوضعيَّ الأصلي الجامعُ؛ فـلا يتـداخل مـع المعـاني المجازيـة الكـثيرة كإسناد وُقُوعِ الظلمِ إلى الجماد مثـلِ الأرض المظلومـة[1] .. ثمَّ نعـود إلى تأصيل الإمام ابن فارس للمادة الثانية؛ وهي (النُّـور)، فنجـد أنَّ المعـنى من هذ المادة الذي يَرِدُ مُقارَناً ببعض معـاني الظـلام : لا يـرد إلا مُقارَنـاً بمعنى مجازيٍّ مِن مادة (ظَلَـمَ)؛ وهـو معنًـى ضِـدُّ الضـياء مـن (أظلـم) الرباعي الذي هو معنى مجازي من الظَّلْم .. والإمام ابن فارس رحمـه الله تعالى أصَّل للنور بمعناه الوضعي الأصلي الذي هـو الضـياء، وبأعراضـه كالاضطراب، وقِلَّة الثبات، وسرعة الحركة، والبيان والظهور والثبـات؛ فتميَّزت بـذلك معـانٍ مجازيـةٌ أُخـرى كمعـنى النـار والنَّـوْرِ بفـتح النـون الـمُضَعَّفة، ومعنى المنار والمنارة كمنار الأرض والْـمِئذنة .

قال أبو عبدالرحمن : سبحان ربي جَلَّ جلالُه مُعَلِّمُ اللغـاتِ مـن عهـد آدم إلى تبلبل الألسن؛ وهو سبحانه مُعَلِّـمُ اللغـات في تعليمـه الملائكـة عليهم السلام وجميع الـمَخلوقات قبـل وجـود بـني آدم .. علَّمهـم لُغـةَ خطابِه إيَّاهم، ولغةَ تخاطبهم بينهم؛ وكانت لُغـاتِ الخطـاب مِـن أعظـم

(١) انظر كتابَ (مقاييسُ اللغة) للإمام ابن فارس [- ٣٩٥] رحمه الله تعالى ٤٦٨/٣ - ٤٦٩/ دار الجيل ببيروت / طبعتُهم الأولى عام ١٤١١هـ.

آيات الله كما في سورة الروم؛ ولهذا تتجدَّدُ معانٍ يُظَنُّ أنها شاذَّةٌ عن لغة العرب.. وما هي بشاذة، وما هي بضائعة؛ فقد أقمتُ البرهان في غير هذا الموضع على أنَّ لغةَ العرب لم يضع منها شيئٌ، ولكن لا يحيط بها إلا نبيٌّ كما قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى؛ فمِمَّا ظُنَّ شذوذهُ (النِّوَار) بالنون المُضَعَّفة المكسْورة، والواو المفتوحة المَمْدودة، و(النَّؤور) بالنون المُضَعَّفَة والهمزة على واو ممدودةٍ.

قال أبو عبدالرحمن : كلا لم تَشِذَّ ولم تضع هذه المفردات ومعانيها؛ فأمَّا النِّوار بمعنى النِّفار فهو مجازٌ مِن وراءِ مجاز؛ مأخوذٌ من نارت النار إذا امْتَدَّ وأسْرَعَ ضياؤها وحرارتها .. والعامة في نجد - وهم ورثة كثير مِن المفردات بمعانيها الفصيحة بتحريفٍ، وبدون تحريف كما بيَّنتُ ذلك وتقصَّيتُه في كُتُبي التي شرحت فيها الشعر العامي - لا تزال إلى هذا اليوم ولا سيِّما الباديةُ تستعمل (نارَ) بمعنى انطلق هارباً مُسْرِعاً؛ وسَمَّوا (مُنيراً) من الضياء، ومنيرةً .. وسَمَّوا (نوَراً)، و(نَوَّاراً) مِن الضياء أيضاً؛ وَسَمَّوْا (نُوْرَةَ)، وتصغيرها (نْوَيِّرةُ) و(النُّوْريُّ) وصفاً بياء النسب؛ أَخْذاً مِن (نُوْرِ النُّورَة) التي تستعملها النساءُ لإزالة شَعْرِ العانةِ؛ أَخْذاً مِن ضيائه؛ لكونه أبْيضَ ناصعاً؛ وهكذا تَتَشَعَّبُ معاني اللغة المجازيَّة .. ووصف الفُصحاءُ الْمَرْأَةَ العفيفَةَ التي تَنْفِرُ من الفاحشة بصفةِ (نَوارِ)، والمصدرُ (نَوْراً) من فعْلِ (نارَتْ) .. وأعْرف من أسماء البادية (نُوَاراً) الدِّلح مِن فرسان البادية رحمه الله تعالى .. كان يأخذ الغنمَ الهزيلة من مَسْقَطِ رأسي مدينة (شقراء) أيَّامَ الربيع، ويرعاها، ويُشرِف على ولاداتها، ثم يُعيدها أيَّام الصيفِ بعد عامين أو ثلاثة أعوام وهي قطيعٌ مِن الغنم مُتَنامية، ويُسَمِّي العامةُ إعادتَها

(صَلَّاً) .. يقولون: صَلَّ (نوَارْ) الدلْح غَنَمَ أهل شقراء هذا اليوم .. وكان رحمه الله مع شجاعته (وأنا أَتَخَيَّلُهُ الآن مِن رُؤْيتي إيَّاه ولَمَّا أبلغِ الحُلُمَ بَعْدُ) عريضَ الصدْرِ، كثَّ اللحية، يُزينها بالحِناءِ الشدَّيدةِ الحُمْرةِ، ويرعاها بالتسريح والادِّهان والعِطْر الشرقي ولا سيما دُهْنُ العودِ على شُحِّهِ وارتفاعِ سِعْرِه .. وكان لاَ يفِدُ على والدي رحمهما تعالى إلا بقطعةِ من ظبيٍ، أو أرنبٍ، أو من أُنثى الضِّبابِ التي توصف بأنَّها مُكُونٌ .

قال أبو عبدالرحمن : وَعَدَّ ابن فارسٍ رحمه الله تعالى مِن الشاذِّ (النَّؤُورَ) بالنون الْمُضَعَّفَةِ، والهمزةِ الْمَمْدُودَةِ بالواو بمعنى دُخانِ الفَتِيلَةِ يُتَخَّذُ وشْماً .. وما هو بشاذٍّ، بل هو مأخوذٌ مِن امتدادِ النارِ بسرعة؛ وفي هذا معنى قِلَّةِ ثباتها؛ فكلَّ هذا تَسْمِيةٌ مِن صفاتِ النارِ العارضة؛ وهكذا تتشَعَّبُ المعاني المجازية بأدنى الأسباب .. والعامة تُشَرِّبُ الصَّمْغَ بفتات الفتيلةِ المحترقة، وتَتَخِذُ منه حِبْراً .. وهكذا يعملون بما علق بباطن (الْمِقْرَصةِ)؛ وهي آلةٌ من النُّحاسِ يُغَطَّى بها التَّنور، وَيُنْضَجُ على ظاهرها أقراصٌ مِن الْبُرِّ ناعمةٌ، وَيُسَمُّون ما عَلِقَ بباطنها (سِنوْ)، ولا يكاد يُسْتَعْمَلَ هذا اللفظ اليوم؛ ولعله مأخوذ مِن السَّناء؛ بل هو مأخوذٌ منه بيقين؛ وهذا غيرُ ما يُنضَجُ على جوانب التَّنورِ إذا لم تُسْتَعْمَلْ الـمِقْرَصَةُ .. وكلَّ ما عَلِقَ بباطن الـمِقْرصة وجوانب التَّنُّور يُجلْى به الصَّدَأُ في الخاتمِ، وفي بعضِ الأواني ولا سيما مِن أوْعيةِ الصفْرِ المعروفةِ بـ (الدِّلالِ) سواءً أكانت من النحاس الأحمرِ الْمُبَيَّضِ، أم مِن الصِّفْرِ الأصفر .. وذكر ابن فارس مِن الشاذِّ غَرْزَ اللِّثةِ بالإثْمِدِ بآلةِ الإبْرةَ .. وما هو بشاذ؛ بل هو أَخْذٌ مباشِرٌ مِن الضِّياءِ؛ لأن اللثَّةَ تُضِيءُ؛ ولهذا قالوا : (نَوَّرتْ اللِّثَةَ) .. وكلّ

لونٍ ناصعٍ : يَحُفُّ به الضياء ولو كان أَسْوَدَ؛ ولقد تقصَّيتُ ذلك في تحقيقي رسالة الألوان للإمام ابن حزم رحمه الله تعالى[1]، وإلى لقاءٍ في مثلِ هذا اليوم من الأسبوعِ القادمِ إن شاء الله تعالى .

كتبه لكم:

أبو عبدالرحمن ابن عقيل الظاهري

(محمد بن عمر بن عبدالرحمن العقيل)

- غفر الله له، ولوالديه، ولجميع إخوانه المسلمين -

(١) انظر عن معاني (النُّور) كتابَ (مقاييسُ اللغة) للإمام ابن فارس رحمه الله تعالى ٣٦٨/٥ - ٣٦٩ / دار الجيل ببيروت/ طبعتهم الأولى عام ١٤١١هـ.